فى العراق الشـــقيق

للأســـتاذ محمد هاشم عطية

أستاذ الأدب العربى بدار المعلمين العالية ببغداد

لا شك أن معظم المصريين لا يعرفون شيئاً يذكر عن التقدم الاجتماعى فى هذه البلاد الشقيقة التى استطاعت فى مدى قصير من الزمن أن تصل إلى درجة من النهوض لا ينبغى الاقتصار فى تقدير قيمتها على ما ينشره بعض الصحف المصرية من التعليقات التى لا تكاد تعبر عن الحقيقة الزاهية لما أصبح يتمتع به ذلك القطر الشقيق من نمو متواصل فى أكثر مرافق الحياة ولقد كنت منذ عدة سنين أتوق إلى زيارة العراق رغبة فى الوقوف على ما عسى أن يكون باقياً من آثارها التى طالما قرأنا عنها فى كتب الأوائل خلال تلك العهود الزاهرة من خلافة العباسيين فى بغداد ومن الحق أن كثيراً من الكتاب والمؤلفين فى مصر وغيرها من البلاد العربية مدين إلى حد غير قليل لما أخرجته المطابع فى مستهل هذا القرن من ذخائر العربية ونفائسها فى الأدب والشعر لمؤلفين وشعراء عاشوا فى بغداد وغيرها من المدن العراقية فى تلك الأزمان البعيدة وأن أساتذة هذه المدرسة القديمة كانوا أئمة العالم الحديث فى البلاد العربية وحتى فى غيرها من البلاد المتمدنة فى أوقات مختلفة ، ومن هنا كان ما تصنعه العراق اليوم من رغبتها فى الاستعانة بمصر واستقدامها لكثير من كبار الأساتذة المصريين لتنظيم نهضتها الثقافية على نحو ملائم لما يتبع من المناهج والأساليب الدراسية فى مصر هو بمثابة استقضائها لدين قديم للسلف من أبنائها فى أعناق مصر الحديثة وغيرها من بلاد الشرق العربى ومن الظواهر البـــارزة التى تشاهد دائما فى الأوساط الراقية والمجتمعات المختلفة ما يبديه العراقيون من حبهم لمصر وشدة تعلقهم بمحاكاتها فى كل ما بلغته من أسباب النظام والتقدم . ولا تكاد تختلف مناهج الدراسة العالية والمتوسطة عن أمثالها فى مصر إلا فى بعض مسائل خاصة بمـــا تقتضيه حالة الإقليم من ناحية القوانين الضرورية للبلاد وأكثر الكتب المقررة للدراسة الثانوية والمتوسطة هناك مقتبسة من الكتب المقررة فى المدارس المصرية أو مشابهة لها ولا تختلف عنها إلا فى العناية بتدريس تاريخ العراق القديم وأدبها الحديث الذى يمتد من الوقت الحاضر إلى نحو ثلاثمائة سنة أما المدارس والمعاهد العالية من الحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة ودور المعلمين العالية والمتوسطة فيشترك فيها الطلبة والطالبات غالباً وعليها إقبال شديد أدى فى العام الماضى إلى استقالة عميد إحدى الكليات لعجزه عن مقاومة الضغط الشديد على كليته وتحققه من عدم كفاية بنايات الكلية على سعتها لمواجهة هذه الحالة بما يضمن انتظام سير العمل فى الكلية وفى هذا العام سيضمون مشروع الجامعة العراقية موضع التنفيذ وإن كان العمل جارياً فى المعاهد الفنية والكليات العالية على غرار الأنظمة الجامعية على السواء ويلاحظ أن الطلاب والطالبات يهتمون بالتحصيل والمذاكرة من أول أيام الدراسة ولا يشغلهم فى الغالب عن ذلك شىء فليس لهم موسم للمذاكرة يبدأ فى شهر أبريل على أحسن التقديرات ، ولذا يظن أن نهضتهم الثقافية ستبكر كثيراً عن الموعد المنتظر لها ومما هو جدير بالذكر أن القوانين العراقية تحرم على الأجانب بلا استثناء أن يتمتعوا بالإقامة الدائمة فى البلاد ولذلك لا تكاد تعثر فى الأراضى العراقية بصقلبى ولا روسى من أولئك الأشتات والأجناس المختلفة وهى بالضرورة تحرم على كل أجنبى أن يتملك شبراً من أرض عراقية ولا يسمحون لرءوس الأموال الأجنبية أن تغزو بلادهم ويرون أن تسير نهضتهم الاجتماعية معتمدة على كفايتهم الخاصة ومقدرتهم الحاضرة متريثة بطيئة تنضج مع الزمن خير من أن تتحكم فيها الأيدى الأجنبية برءوس أموالها التى يعتبرون دخولها إلى بلادهم تنازلا تدريجياً عن التحكم فى مواردهم وثروتهم والقضاء على كل مشروع من شأنه ترقية مرافق الدولة وإعدادها لحياة طليقة من سيطرة الأجنبى كما هو الشأن فى غير العراق من الأقطار الكبرى فى البلاد الشرقية

ولقد شاهدت أن العراقيين يشعرون شعوراً تاماً بشدة الحاجة إلى رفع مستوى الحياة العامة فى بلادهم فهم مع إبائهم وما يتمتعون به من الشمائل البدوية كالكرم والشجاعة لا يرفضون الاستجابة لدعاء المصلحين من قادتهم وزعمائهم ولا يحاولون أن ينفروا

بالماضي أو يزهون بالألقاب ولا يعتمدون في تدبير أمورهم على الإجراءات المطولة المعقدة من تأليف اللجان واستقدام الخبراء العالمين لكل ما دق أو جل من الأمور وإن كانوا لا يحجمون في الوقت نفسه عن الاستفادة من الدنيات المختلفة واقتباس الوسائل النافعة في تسوية مشاكلهم المهمة ومشروعاتهم الكبيرة مما يجري عليه العمل في مصر وغيرها من بلاد أوروبا وأمريكا واقد نبههم معالي الأستاذ رضا الشبيبي من كبار رجالهم ومصلحيهم في مقال له إلى الطريقة المتبعة عندهم في إحصاء السكان وأنها غير دقيقة ولا كفيلة بحماية خراج الدولة في وقت اشتدت حاجتها فيه إلى المال ويستوجب العمل من جميع طبقات الشعب على تزويد خزانة الحكومة بالأموال مساعدة لها على النهوض بما نضطلع به من الأعباء وفي اليوم التالي مباشرة ظهر في الصحف بلاغ من الحكومة بأنها ستوفد قريباً بعثة إلى مصر للتخصص في عملية الإحصاء ودراسة أحدث الأساليب المتبعة في ذلك

وسمعت من السيد هاشم الألوسي المدير العام للتعليم الابتدائي أن وزارة المعارف تعد مساكن صغيرة مستوفية لجميع الشرائط الصحية للمدرسين الذين لا يجدون في القرى البعيدة مساكن منظمة وأنهم يعنون أشد العناية بصحة أولئك المعلمين والطلاب ووضع جميع التدابير لوقايتهم من آفتين تتفشيان غالباً في تلك الأماكن النائية .

وهناك ظاهرة اجتماعية تستحق التنويه وهي ما يسمونه عندهم بالقبول وهو عبارة عما يتبادلونه بينهم من الزاور والسمر في المنازل في أيام الأسبوع في أكثر البيوت الكبيرة في الغداة أو في العشي على حسب المألوف من عادتهم في ذلك ، وكثيراً ما شهدت غداة الجمعة في دار صاحب المعالي صبحي الدفتري أحد عظمائهم وهي تضم طائفة كبيرة من رجالات العراق وأدبائهم ومشايخهم يقضون وقتاً طويلا في الحديث والمطارحة مع أدب تناول ورقة حاشية وحفاوة مضيف ويمثلون في ذلك أرقى مايتطلبه المجتمع المتمدن من مظاهر الاحترام والذوق وكذلك الحال في كثير من البيوتات الأخرى كدار الصدر والشبيبي وعندى والشواف وغيرهم مما كان يوجد مثله في القاهرة منذ نحو ثلاثين سنة في دار آل سليمان وعبد الرازق وكانت هذه المجالس أشبه بالمدارس العالية لتخريج المواهب وتلقيح العقول بثمرات التجارب كما هي الآن في بغداد .

ولقد مكنني صديق الأديب الكبير والشاعر الموهوب السيد حسين بستانه وهو أحد الأساتذة الذين تخرجوا في دار العلوم العالية في مصر وينهضون الآن بأعباء تدل على مبلغ ما لديهم من الكفاية والثقة مكنني ذلك الصديق الذي لا أنسى ما حييت فضله وأدبه ووفاءه من زيارة المشاهد المقدسة في النجف الأشرف وكربلاء في رحلة ممتعة سأفرد لها مقالا آخر إن شاء الله تعالى

ولا يمنعني ذلك من القول بأنه ستمر فترة غير قصيرة إلى أن تتخلص بغداد الجديدة مما يتخلل بنيانها في كثير من الأحياء من الكهوف الغامضة والدروب الضيقة التي لا تخلو من أقذار متراكمة ومسارب عفنة لا يخفى ما لها من الآثار المضرة بالصحة العامة بين سكان العاصمة العراقية وخاصة في أيام الصيف حين يشتد القيظ وتتصاعد الروائح الكريهة من هذه الأزقة ودورات المياه التي لا تزال في حالة بدائية لا يمكن التخلص منها إلا بإنشاء مشروع المجاري على نحو ما هو متبع من ذلك في القاهرة وغيرها من المدن الكبرى في البلاد المتمدنة مع العناية باستخدام الأجهزة الحديثة الضرورية لصيانة المنازل والسكان من الأضرار المحققة من هذه الأوضاع الحالية لدورات المياه والمغاسل وهي من ألزم الأشياء للحياة

ولا أستطيع أن أزعم أن الطبقات الفقيرة في مصر أحسن حالا منها في بغداد فهي متشابهة في رثاثة الثياب وسوء الجلود وفيما يختلف على كل منهما من الجهل والفقر والمرض مما يحاربه الناس في القطرين بتنميق المقال أكثر مما يحاربونه بالفعال

وفي الربيع الماضي زار الوفد السوداني مدينة بغداد وقد كانت هذه الزيارة فرصة جديدة أتاحت لنا أن نشعر من قريب بشدة حدب العراقيين على القضية المصرية وعطفهم على أماني إخوانهم المصريين ولقد لقي الوفد ورئيسه الوطني العظيم من الترحيب والحفاوة ما لا مزيد عليه من سمو الوصي المعظم ورجال الحكومة وطبقات الشعب على اختلافها وأقيمت لهم عدة مآدب وحفلات كان آخرها ما قام به الأساتذة المصريون الموظفون في الحكومة العراقية وقد ألقيت في هذه الحفلة القصيدة الآتية التي

يكون من المناسب نشرها الآن فى مصر على صفحات الرسالة الغراء وهذه هى القصيدة :

حيّ وفد السودان ياصاح بالشعر ... وجدد لهم حسان الأمانى
واسقنا شربة من النيل أحلى ... من رحيق معتق فى الدنان
هى من كوثر يصفقها الساق ... شفاء لهجة الظمآن
فيا على الشطين ساجمة الأيك ... تناغى الأليف فى أسوان
وهى نشوى تقول مفصحة الشدو ... هتوفاً بأعذب الألحان
نحن شعب فسائلوا النيل عنا ... كيف أفنوا بأننا شعبان
واسألوا الدهر والقرون الخوالى ... فسيشهدون أننا أخوان
وحدة فى الحياة والدين والرأى ... وفضل الحجا وحسن البيان
قد بنتها طبيعة النيل صرحاً ... شامخ الفرع راسخ البنيان
لم يعبها أن قد أصاب مغير ... من شباها بحده والسنان
كان منها مكان ناطحة الصخر ... بقرن عضب ورأس هدان
فأقامت على الشناءة تنمى ... لا وناة ولا ذلول العنان
تعصف الحادثات من جانبيها ... فى الصفا الصم من ذرى شهلان
أيها الرائح المجد رويداً ... إن لقيت الأعلام من كردفان
فأحبس الدمع أن يفيض من الشوق ... وخل الفؤاد للخفقان
وتخطر فوق الأسيل نديا ... من نشر الربا وطيب المجانى
وافض حقاً لآل دنقلة الغراء ... واشك الهوى إلى الندمان
وابتغ الصحب فى الندى حلالا ... وانثر اللفظ سائغاً والمعانى
قل لأشياخهم وقل لشباب ... كموالى أسنة المران
أننا مثل ما عهدتم ولاء ... ووفاء ما أشرق الفرقدان
ليس منا من ليس ينضب أن يدعى ... اضيم أو يرتضى بالهوان
ترقب النجم أن يضيء سحيراً ... من أعالى النيلين حتى الأدانى
شارفاً ينشر البشائر بالوادى ... مهللا بنوره للعيان
فى ظلال الفاروق والتاج يزهى ... باتحاد الإخوان بالإخوان
فى ذرى ملكه ومن هو كالفاروق ... فى عدله وفى السلطان
قد حبتكم بغداد حين نزلتم ... فى حمى فيصل العظيم الشأن
والعراق الشقيق رحب بالوفد ... وحيا بقلبه واللسان
ولعمرى لجبهة القلب أنتم ... ولأنتم إنسان عين الزمان
فهنيئاً لكم بما قد حييتم ... ثقة الشعب وحى هذا الأوان
وعليكم من كل قلب سلام ... مثل نور الربيع فى نيسان

محمد هاشم عطية

رسائل حائرة :

الرسالة الثانية . . .

للأستاذ إبراهيم محمد نجا

[كنت تقول : « لا أحب أن ألعب بالقلوب ؛ حتى لايلعب أحد بقلبى . » فإليها حديث القلب فى هذه القصيدة] :

هل تظنين أننى أتمنى ... أن أرى قلبك الرقيق مُعَنَّى ؟!
لا وحُبِّيك . ما تمنيت إلا ... فرحة تحتوى صباك وأمْنا
وربيعاً يمس قلبك بالحبِّ (م) فيمضى مرفرفاً يتغنى
يرسل اللحن فى أغانيه حبًّا ... ويذيع الهوى غناء ولحنا
أنا يا مُنْيتى بقلبك — لو تد ... رين حبى — أبر منك وأحنى
أنا أفديك يا حياتى بروحى ... وهى أسمى من الوجود وأسنى
أنا أهواك راضىَ النفس حتى ... لو يكون الهوى شقاء وحزنا !
كفراش يهفو إلى النار ظمآ ... ن ، وإن كان فى اللهيب سيفنى !
لا تخافى قلبى ؛ فما هو إلا ... طائر هزه الجمال فغنى
عبر العمر تائهاً فى الصحارى ... ورأى واحة الغريب فحنا
لا تخافى حبى ؛ فحبىَ بذلٌ ... ووفاء ، وليس غدراً وضنا
واقبليه منى ؛ فحبك يسرى ... فىَّ مسرى الدماء ، أو هو أدنى
وافهمينى ، فلو فهمت شعورى ... ألّف الحب بيننا حيث كنا
كلما بَرَّح السهاد بنفسى ... قلت : زدنى اودع فتانىَ وسنى
وإذا قرح البكاء جفونى ... قلت : لا بلّ لىَ البكا لالتِ جفنا
والاقيك يا شقيقة نفسى ... هادىء النفس ، وادعاً ، مطمئنا
وبقلبى — لو تعلمين — من الوجـ ... ـد تباريح لفحُها ما تأنى
وأرد الكلام خشية أن يبـ ... ـدر منه ما يكشف المستكنا
واصيك فى الرسائل أختى ... وأنا أقصد الحبيبة ضمنا
يا حياتى إنى وضعت حياتى ... بين عينيك ضارعاً أتمنى
فاجعلينى كما تشائين إنى ... أنا أرضى به ، وأنعمتِ عينا
اجعلينى فى الحب — إن شئت — حراً ... واجعلينى — إن شئت — فى الحب رِقنا
وارحمينى ، أو عذبينى ؛ فإنى ... قد رأيت العذاب للفن خِدنا
حسبُ نفسى تجارب تملأ النفـ ... ـس حياة ، وتملأ العمر فنا
وكفانى أن أرسل الشعر من قلـ ... ـبى ، فيمضى الوجود قلباً وأذنا
وسواء لدىَّ أصبحتُ قيساً ... قيسَ ليلى فى الحب أو قيسَ لبنى